الاحابيش
والنظام العسكري في مكة
زمن الهجرة

بقلم الاب لامنس اليسوعي

٢

لقد حاولنا ، في القسم الاول من هذا البحث[1] ، ان نزيل شيئاً من الغموض العالق « بالاحابيش » لفظاً وحقيقةً . فتحققنا وجود اولئك العاكر السود في الجيش القُرشي ، واشرنا الى ان التاريخ الرسمي أبعد من ان يُقرّ به. انما هو يجعل من « الاحابيش » عرباً تحالفوا مع قريش . ويأتي اللغويون لنجدة المؤرخين فيحوّلون اسم « الاحابيش » ، عن بلاد الحبش ، الى جبل في جزيرة العرب ينسبون اليه اولئك الاحلاف فيقول عنهم ابن دريد : « حلفاء قريش تحالفوا تحت جبل يقال له حبشي فسُمّوا الاحابيش »[2] . وانتهينا الى اضطراب اللغويين في وضع جبلهم المزعوم من بلاد العرب . وذلك انهم في تحقيقاتهم الحاذقة اللبقة لا يتنبهون للجغرافية . بل قد يخطئون في تعيين ، لا موضع ذاك المحلّ فقط ، بل طبيعته ايضاً حتى ليجوز لنا ان نسأل أهو جبلٌ ام وادٍ ؟[3] انما يكتفي جمهورهم بوضعه في منطقة مكّة ، او في بلاد تهامة . ولا يخفى ما في هذا التعيين المتقلقل من مثيرات الشكّ . وهو ما لاحظناه غير مرّة في مؤلفي « المعاجم » من انصرافهم عن الاخذ بطريقة الاختبار والتحقّق الشخصي في الشؤون الجغرافية ، هذا على ما في معاجمهم من غزارة مادّة ، وسعة معلومات.

---

١) في « مشرق » السنة الحالية ، ص ١–٢٣

٢) ابن دريد : الاشتقاق ١١٩ ؛ ابن هشام : السيرة ٢ : ٨٠

٣) يذكر ابن هشام (السيرة ٢٤٦) وادي الاحباش . فهل يمهّد السبيل في ذلك الى التقريب بينه وبين الاحابيش ؟

وليس من شكّ في ان هذا الضعف النقدي ، بل هذا النوع من مظاهر الكسل العقلي ، يحطّ كثيرًا من قيمة تلك المجاميع . وهذا ياقوت يقترح ، في سرعته المعهودة ، بان يجعل الموضع المقصود في وادي نعمان الاخضر[1] ، نعمان الاراك[2] ، المشرف على المناسك في عرَفة ومِنى . وما دامت المسألة مسألة اقتراح وفرضيات فلِمَ لا يكون لنا جبال بدل جبل واحد ؟ أوَ لم يمِل الازرقي الى التمييز بين حُبْشي ، جبل التحالف ، وحَبْشي وهو جبل آخر لا شأن له ، مؤكدًا ان الاسم المذكور « لم يُنسب الى رجل حبشي »[3] .

وهو معلوم ان الكهّان والعرّافين كانوا ، زمن الجاهلية ، يجنحون الى المرتفعات[4] فينصرفون فيها الى القيام بشعائر مهنتهم الخاصة . فكان لهم حول مكة كثير من تلك القمم تملوها اماكن العبادة[5] . فلا عجب اذًا بان يكون المفسّرون من الاختصاصيين بشرح « الغريب »[6] قد لجأوا اليها مفتّشين عن اسم يمكنهم ان يقرّبوا بينه وبين « الاحابيش » . ومن يفتّش يجد في تلك الكثرة من اسماء الاعلام الوافرة في مناطق الصحراء . واذًا فقد اكتشف العلماء هذا الاسم محرّفًا بعض الشيء في الآليّات ، او الأيمان القديمة ، التي كان يكثر منها العرب في جميع عصورهم ؛ وكأنهم لا يقنعون بالتعبير البسيط عن افكارهم ، فينفرون عن الاكتفاء بالقول : « نعم ، نعم ، ولا ، لا »[7] ، مسيّرين بطبيعتهم المندفعة واهوائهم المضطربة حركةً وحياةً الى

---

١) اطلب كتابنا *Le Berceau de l'Islam*, I, 69

٢) ياقوت (الطبعة المصرية) ٣ : ٢١١

٣) الازرقي (Wüstenfeld) ٧١ ، ٤٩١

٤) اسد الغابة ٥ : ٧ ؛ السيرة الحلبية ١ : ٢١٣

٥) راجع لائحة تلك المرتفعات الكثيرة في الاربعين الصفحة الاخيرة من مؤلف الازرقي (Wüstenfeld)

٦) وهو تلك الالفاظ القديمة ، والتعابير الغريبة الاستعمال ، الحافلة بها الاحاديث المنسوبة الى النبي . ولا يخفى ان اكثرها مدسوس ، ادخله الواضعون ليوهموا الناس قدم تلك الاحاديث وصحة نسبتها . ولا يزال يتراءى بهذه المظاهر عدد كبير من علماء الاسلاميات ممن يتصيّدهم التضلّع او يصيب بهم التسرّع والعجلة .

٧) متى ٥ : ٣٧

تأييد كلامهم باليمين ، بل بسلسلة من الأيمان يُرسلونها فطرةً في احاديثهم البسيطة ، وفي اقوالهم الرفيعة ، في قصائد شعرائهم وفي اسجاع كهّانهم خاصة. بل ان بعض السور القرآنية لا تعرف من انواع الخطابة الا القسم[1]. ولقد كان من الطبيعي ان تكثر في هذه الأيمان اسماء المرتفعات التي يأوي اليها الكهّان وحجارتهم المؤلهة ، فيستشهد بها البدوي على صحة قوله[2] فيحلف انه مُقيم على العهد « ما أقام حُبشي »[3] مثلاً ، او « ما رسا حُبشي »[4] ، او حَبَشي . اما في الأيمان القرشية فكثيراً ما استبدل بحبشي جبل ثور ، او ثبير ، او حراء[5] ، او ابو قُبيس ؛ وكلها مرتفعات اقرب الى المجتمع المكي[6] ، وابعد شهرة بفضل مناسك الحج السنوي.

ولم يكن اللغويون ليطلبوا اكثر من هذه الاكتشافات ، فعلقوا بها ووضعوا قرب حبشي بمكان ذاك التحالف العسكري . بيد انهم ، لسوء الحظ ، لم يتفقوا على لفظ الاسم ، هل هو حَبَشي ، أم حُبشي ، ام احباش ، ام حَبيش ؟ كل هذا ينمّ عن استقائهم المعلومات من الكتب ، مُعرضين عن طريقة التحقّق الشخصي. وقد مال البكري الى تفضيل لفظ « حَبيش » ، وهو اقلها ورودًا ، ذاكرًا أن « اهل الحديث » يميلون الى حُبشي . وهذا قوله : « وحبيش جبلٌ بمكة ؛ وبه سُميت الاحابيش حلفاء قُريش ، لانهم تحالفوا تحته ألّا ينقضوا ما أقام حبيش . واهل الحديث يقولون حُبشي ، بضمّ اوله منسوب على مثال فُعلي ، موضع على عشرة اميال من مكة ، به مات عبد الرحمن بن ابي بكر

١) قابل بها في القرآن ١٩ : ٦٩

٢) الجاحظ : الحيوان ٤ : ١٥٠ ؛ اسد الغابة ٥ : ٧ ؛ ابن هشام ١٣٢ ؛ ابن الاثير : النهاية ٢ : ٢٧٣ ، ٣ : ٤٥ ، ٤ : ٥٩ ؛ الهمداني : جزيرة العرب ١٢٦ ؛ البكري : المعجم ٦٠٢

٣) البكري : المعجم ٢٦٣–٢٦٤ ؛ ابن قتيبة : المعارف ٣٠٢

٤) ياقوت : المعجم (الطبعة المصرية) ٣ : ٢١١ ، وهو يكتب ايضاً : حَبيش.

٥) الاغاني ١٣ : ٢٩ ، ٨٥ . ويتزل هذا الجبل في كتب « الصحيح » منزلة جبل الطور او طابور في الانجيل . اسد الغابة ٣ : ٢٧٨ ، ٤ : ٦٣

٦) لقد جرسنا تأثير هذه المرتفعات في كتابنا : *Les sanctuaires préislamites dans l'Arabie occidentale*, p. 21

فجأةً[1]. وصحته ، والله أعلم ، حَبيش »[2].

أوَ لا يجوز لنا ، وقد رأينا هذا الاضطراب والغموض والجمجمة ، ان نقول ان اللغويين والمفسّرين جهلوا ، او تجاهلوا ، الاصل اللغوي الحقيقي للفظة « الاحابيش » ؟ فعلقوا بهذه الشروح الضعيفة ، مكتفين بما يبعد عن « أحابيشهم » كل علاقة بالسودان الآتين من بلاد الحبش ، بأولئك الذين كانوا يسمّونهم « عبدان اهل مكة » او « سودان مكة »[3] . ولقد كان من همّ العاطفة الوطنية المحلية ان تصل الى هذه النتيجة ، بل الى هذا الغموض والخلط .

ثم ان المذهب المكي ، في عمله الدائب على سدّ الثلم الواهية في مصادر تاريخه الوطني ، لا يأنف ان يلتجئ احياناً الى شعر حسّان بن ثابت ، على الرغم من نزعة حسّان المدنية ، وهجائه اللاذع المقذع في القرشيين[4]. ولم يتنبه ارباب هذا المذهب ، مؤرخين كانوا او مفسّرين ، لما يجرّه عليهم الاستشهاد بشعر حسّان ، او انهم لم يفقهوا كلّ الفقه هذا الشعر القديم ، لكثرة ما تكاثف عليه من الغموض ، ولم يمرّ على نظمه قرنٌ كامل . وهكذا ، على الرغم مما اتصف به مؤلفو « السيرة » من حسّ لغويّ دقيق ، تراهم لا يجيزون بسهولة بين المقطع الهجائي والقصيدة التاريخية . هي هفوة وقع فيها ابن هشام ، مَن عرفناه عالماً بالشعر القديم ، مدقّقاً في قبول صحة نسبته[5].

ولا يخفى ان ديوان حسّان سجلّ شامل ، بل شاهد حيّ ، لمظاهر تحقد الانصار على المهاجرين ، اولئك القرشيين الذين احتلّوا مدينتهم ، فضيّقوا عليهم .

---

١) وفي الاغاني اشارة الى هذه الحادثة ١٤ : ٧٠ ؛ ١٦ : ٩٦ ؛ ويقال ان قبر عبد الرحمن المذكور كان معروفاً هناك . اما الازرقي ، ٤٣٢ ، فيقول : « مات بالحبشي فلم يُحمل الى مكة ». وقوله حجة في تاريخ المنطقة المكيّة . ولم يزد من اتى بعده على ان تلوه . قابل بما في اسد الغابة ٣ : ٢٠٦

٢) البكري : المعجم ٢٦٣–٢٦٤

٣) اسد الغابة ٥ : ٨٣ في الكلام عن وَحْشي .

٤) ابن هشام : السيرة ٥٧٢ ، ولتقابل بما في الصفحة ٥٢٢

٥) من ذلك اهتمامه بالتدقيق في صحة الشواهد في الصفحات ٢٢٧، ٤١٦، ٤١٨، ٤١٩ ، ٤٢١، ٤٦٢، ٤٦٣ . . .

وفي هذا الديوان مقطع ، هو الحادي والستون من طبعة هيرشفلد[1] ، يلتمح الى بعض الحوادث الحربية في حياة النبي ، واذا فهو يهمنا في الموضوع الحاضر . بيد ان ابا زيد الانصاري[2] ينفي ان تكون القصيدة لحسان ، فينسبها الى كعب بن مالك ، وهو من شعراء المدينة ايضاً . ولا يستغرب المطالع هذا التردد في نسبة الشعر ، فهو طبيعي يستند الى المبررات المديدة من اضطراب التقليد الشعري وضعف الثقة ببعض الرواة ، ولاسيما في ما خص شعر حسان ، وقد كثر فيه المنحول . ومهما يكن من أمر ، فان المقطع قديم ، مدني الاصل . وهو « نقيضة » يرد بها الشاعر على احد شعراء مكة ، هُبيرة بن ابي وهب ، « فينقض » قوله . ولنحذر أن نعتبر كثيراً بآثار شعراء قريش قبل الفتح[3] . انا نحن نقبلها بتحفظ ، مشيرين الى ما يهمنا من هذه القصيدة المنسوبة الى هُبيرة بن ابي وهب ، والمؤلفة من تعابير متنوعة المصادر[4] . وهو هذا البيت :

سُقنا كتائبَ من أطراف ذي يمنٍ عُرض البلاد على من كان يُزجيها[5]

ولا يخفى ان النبرة الفخرية كافية وحدها لتعيين زمن انشاء القصيدة . فهي تنقلنا الى عهد تسلط الخلافة القرشية واستبدادها . اما قبل ذلك ، زمن صدر الاسلام ، وهو الزمن المزعوم لانشاء القصيدة ، فلم يكن بين معاصري ابي سفيان من يعتز هذا الفوز بسيادة المكيين على جيرانهم من أبناء البدو . بيد ان صفات العلو هذه هي التي دفعت جُمّاع حوادث السيرة الى الاخذ بالقصيدة وادخالها في مجموعتهم . وهاك الآن جواب حسان ، او كعب ، في النقيضة[6] ، ويهمنا

---

١) في مجموعة « *Gibb Memorial Fund* » ، وهذه الطبعة ضعيفة النقد تظهر بحاجة الى مزيد تدقيق .

٢) ابن هشام : السيرة ٦١٢ . كان جد ابي زيد ، صاحب الغريب او صاحب النحو ، من الصحابة (اسد الغابة ٥ : ٣٠٢) : فكان لا بدّ ان يعرف ابو زيد هذا تاريخ الانصار الادبي .

٣) قابل ، في ما خص مراثي قتلى بدر ، بملاحظة ابن هشام النقدية في السيرة ٥٢٤ ، ثم ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٥٢٤ ، ٥٢٨ ، ٥٣٠ .

٤) قابل بالاثير ابن الاثير : النهاية ٢ : ٥٣ ، ٤ : ٩٣

٥) ابن هشام : السيرة ٦١٢ ؛ وكانوا يتخذون العسكر من الازد احياناً ، وهم يمنيون ؛ راجع اسد الغابة ٣ : ٢٣٨

٦) ديوان حسان ٦١ : ١-٣

منه بيته الاخير خاصة :

سُفتم كنانة ، جهلًا ، من عداوتكم ، الى الرسول ، فجند الله مُخزيها !
اوردتموها حياضَ الموت ، ضاحيةً ! فالنار موعدها ، والقتل لاقيها .
انتم احابيش جُبيتم بلا نسبٍ ، أغثة الكفر غرّتكم طوافيها !

وان لفظ « الاحابيش » الوارد في البيت الثالث يظهر غريباً نادراً في الشعر الجاهلي وفي شعر صدر الاسلام نفسه[1] . ولهذا لفت نظر ارباب الحديث منذ اقدم عصورهم .

ومما نجب الاشارة اليه ان كثيرًا من العلماء[2] لا يزالون يتصوّرون الحديث الاسلامي ينشأ موازياً تطوّر المذهب القرآني ؛ فيرتكز على سلسلة من الاخبار والحوادث راقية مباشرةً الى النبي ، مستندة ، في حلقات صحيحة متتابعة معدّلة ، الى طائفة من الصحابة حفظت لنا المجاميع الاختصاصية ، كأسد الغابة واصابة ابن حجر ، تراجم حياتهم المتضخمة بالروايات والاساطير ، المتكيّفة بآراء الجامعين بل برغبات وميول القبائل المختلفة ، وكلها حريصة على ان يكون لها من يمثلها بين اعيان الاسلام الاول . على ان هذا التصوّر لا يقوى على النقد . وقد كان لنا ان نعرض له في شيء من التبسُّط[3] ، فنبيّن ما في بناء الاحاديث من رهن وتضعضع وتكلُّف ، وما كان يرمي اليه من غاية هي تفسيرية عقائدية قبل كل شيء ، لا تاريخية ولا جغرافية . وها اننا نرى برهاناً جديدًا لرأينا السابق في هذا البحث . ومما لا شكَّ فيه ان غيرة التابعين على تأليف حياة للنبي جعلتهم ينصرفون باهتمام وحماسة الى درس الآداب الجاهلية . فأقبلوا يجمعون تلك الاشلاء المتفرّقة من الآثار القديمة فيؤلفون بينها ويوافقون ، واذا بها تخرج دواوين سوية للشعراء القدماء . واذا بهم يستغلّونها موادّ صالحة

١) فلا يظهر الا في قصيدة لكعب بن مالك (ابن هشام : السيرة ٦١٤) ، وفي قصيدة لشاعر من غفار (السيرة ٨٠٤) ، ان كانت صحيحة النسبة .

٢) وقد يسلّم بعضهم باسقاط العهد المكّي ، راجع رأي لامنس في *Berceau*, I, Introduction, VII

٣) في ؛ مقالنا *Coran et Tradition : comment fut composée la vie de Mahomet* extrait de *Recherches de science religieuse*, I, 1910

تأليف سيرة الرسول . وهم ، في استغلالهم هذا ، ما كانوا ليغفلوا تلك المقاطع الشعرية الهجائية المتداولة بين مسلمي الجيل الاول منسوبة الى غير واحد من اولئك الذين كانوا « يناضلون عن رسول الله »[1] ، واشهرهم المثلث المدني : حسّان ، وكعب ، وابن رواحة .

على انهم توقفوا هنيهة في شروحهم واستنتاجاتهم امام لفظة « الاحابيش » الغريبة ، فأخذوا يقابلون ويوافقون ويخرجون . ونحن نعرف لهم اليوم هذه الجهود باطلاعنا على مجموعات « غريب الحديث » ، فنتحقق كيف توصلوا فرأوا في اللفظة تعبيراً فنياً عسكرياً كانت تستعمله قريش للدلالة على جنودها من كنانة . ولا يخفى ما في هذا الشرح من التزلف الى المكيين بالاشارة الى اقرار سيطرتهم القديمة . اما غاية الهجاء المدني — وسواء أكان حسّان أم كعباً ام ابن رواحة — فتظهر بعيدة عن هذا الشرح والتخريج . لقد اولى اللفظة ، هو وحده ، معناها الحقيقي المتداول في ذلك العصر . فاليه وحده يجب ان نستند في فهم هذا المعنى . يقول في بيته المذكور ، ان ذاك الجيش الذي ألفته قريش ، في محاربة النبي ، يمثل حشداً من السود ، يسيرون بضجتهم وجلبتهم متجمعين ، دون ترتيب ، فهم اقرب الى « الاحابيش » عبيد افريقية منهم الى الرجال الاحرار ، الى العرب الخلص الذين يجتمعون لنداء الدم ، بفضل النسب ، فيحتشدون حول الراية مدافعين عن قبيلتهم[2] . ولا يخفى ما هناك من توافق بين هذا القول واللهجة الشاملة في القطعة الهجائية ، وما فيه من تلميح دقيق ينال ، ضمناً ، من تعصب سادة مكة أعداء النبي واعداء الانصار . والمعروف عن حسّان أنه كان يبغ في هذا النوع من الهجاء « فيقبل على الانساب »[3] والأعراض ، ولهذا مال اكثر النقاد الى جعله هو صاحب القصيدة المذكورة ، لا كعباً ولا ابن رواحة .

---

١) راجع اسد الغابة ٣ : ١٥٧ ؛ ٤ : ٢٤٨ .

٢) هذا معنى : « جُمّع بلا نسب » . ويرجّح التقليد ان « النسب » خاصة العرب وحدهم ، اما الانباط والاعاجم فيُعرفون بالنسبة الى قريتهم .

٣) اسد الغابة ٤ : ٢٤٨ .

وها ان ابن هشام يفيدنا شيئاً في تأليفه الظاهر الاهتمام بالدقة التاريخية[1] ، فيمهد لنا السبيل لحلّ مقبول . يميّز هذا المؤلف ، بل يدوّن ، على الارجح ، ما رآه في الكتب التي نقل عنها من تمييز بين « احابيش » قريش ، وحلفائها العسكريين ... فيقول « اجتمعت قريش باحابيشها ومَن اطاعها من قبائل كنانة واهل تهامة ... »[2] . ولنحفظ هذا التمييز المهم ، منتقلين الى نصوص تبدو اوضح واوفر دلالة على ما قدّمنا . هي نصوص دونها الواحدي ، والطبري ، والواقدي[3] ، وفي بعضها ذكر جيش « استأجر (صاحبه) الفين من الاحابيش ... سوى مَن اجاب له من العرب »[4] ، وهناك غيرها من النصوص يُميّز فيها بين الاحابيش ومأجورة بني بكر من الغفاريين . ولا يهمنا ، في هذا ، ان يكون كلّ الجتماع والمؤرّخين دقّقوا في الفرق بين الجيشين ، او انهم بالعكس لم ينتبهوا للتمييز ، فخلطوا بين الاحابيش ومأجورة العرب . انما المهم ان يكونوا تفاوا هذا التمييز عن الروايات القديمة ، شأنهم في كل ما يؤلفونه على ذاك الاسلوب التقليدي الاسنادي في تدوين التاريخ القديم . ولقد كان من فضل هذا الاسلوب — على ضعفه ونقصه ودلالتـه على الابتدائيات في فنّ الكتابة — انه سهّل علينا الوصول الى النصوص الاصلية[5] .

يتّضح من كل ذلك ، على مـا نرى ، ان مجموعة الوثائق في الموضوع ، المنظّمة في القرن الاول للهجرة ، كانت تشير الى وجود عناصر غير بدوية في

---

١) من مظاهر الاهتمام بالدقة التاريخية في سيرة ابن هشام جهد المؤلف في تمحيص الشواهد الشعرية ، والاشارة ، وان بطريقة خفية ، الى شكّه في صحة بعضها .

٢) ابن هشام : السيرة ٥٥٦ ؛ قابل بما في ٦٧٥ ؛ الواقدي ١٩٩ ؛ الطبري ١ : ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ؛ الاغاني ١٤ : ١٢ ؛ ابن سعد : الطبقات ٢ : ٤٧ : « احابيشهم ومن تبعهم من العرب » ؛ السمهودي : الوفاء ١ : ٢١٤ .

٣) راجع الحاشية السابقة وانظر ابن الاثير : الكامل (الطبعة المصرية) ١ : ٢٤٧ : كنانة جميعها والاحابيش .

٤) الواحدي : الانساب ١٧٧ ، قابل بما في الطبري ١ : ١٦٣٥

٥) وذلك على خلاف طريقة ابن خلدون التي يرمي فيها الى الجمع بين « الروايات » المختلفة والتوفيق بينها ، ليجعل منها كلها رواية واحدة متناسبة الاقسام .

قوّات مكة العسكرية. وهكذا كانت وحدات « الاحابيش » تتألف ، دون شك ، من جنود سود . على ان هؤلاء الاحباش كانوا يختلطون بالبدو ، بعدد من القبائل عربيي الاصل ، اقل سواداً من ابناء خام . ولقد ذكرنا من هؤلاء ، في بند مقالنا الاول ، مَن كان العرب يدعونهم بالخلعاء ، والصعاليك ، والفتّاك ، واللصوص ، والشياطين[1] . واكثرهم من بني كنانة لجأوا الى ارض الحرم ، حول مكة ، ولم يكن لهم من عمل الا انتظار اول طالب فيؤجرونه سيوفهم ونبالهم . وليس ببعيد ان يكون من هؤلاء الشذّاذ اولئك المغامرون المُلحقون بكتائب قريش ، والذين يشير اليهم قدماء المؤرخين عندما يذكرون رجال القبيلة « ولفّها »[2] . يأتي بعد ذلك رجال القبائل المجاورة لمكة ، وقد دعاهم وتتابع الى حلفها وحدة الاصل والرغبة في السلب. ولقد كان سادة قريش يأخذون من هؤلاء البدو ، احلافٍ ومجاورين ، رجال القيادة والترتيب او رجال الملاك العسكري ، كما نقول اليوم ، فيعهدون اليهم في تنظيم شؤون ذاك الجيش الاسود . فاتّسع ، آذ ذاك ، مدلول لفظة « الاحابيش » حتى أُطلقت على افراد الجيش انفسهم ، وعلى مَن كان يدبّره ويقوده من المؤلفين او الضباط العرب[3] . وهذا على نحو ما نرى في ايامنا من ان لفظة الكتائب السنغالية ، او « العسكرية » (*askari*) تُطلق ، لا على افراد تلك الكتائب الافريقية وحدها ، بل على مَن يديرها ، ويدبّرها ، ويقودها من ضباط الاوربيين . ويجب ألا ننسى ما يدل عليه لفظ « الاحابيش » من كثرة الحامين المستعبَدين في مكة آذ ذاك . وهو امر توضحه النصوص المشيرة بصراحة الى ان امثال وَحشي[4] ، وصُواب ، وابي رُوَيحة ، كانوا « من سودان مكة » او « من عبدان اهل مكة ».

---

١) راجع « مشرق السنة الحالية » ، ص ١–٣

٢) الواقدي ١ : ٢٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ؛ الاغاني ١٩ : ٧٦ ، ٧٩ ؛ العقد ٢ : ٤٧ ؛ وقابل بما في الاغاني ٩ : ١٧ ؛ ويجب ان نضيف « الضرائط » ، كما في اسد الغابة ٤ : ٢٨٣ ؛ الاغاني ١٩ : ٧٥ ؛ ابو زيد : النوادر ٥٤ ؛ الجاحظ : كتاب الحيوان ١ : ٢٢ ، ١٧٧

٣) ولهذا رأينا عدداً من البدو المخلّص ، يُدعون « بالاحابيش » .

٤) وهو اسم كثير الانتشار بين « سودان مكة ».

وقد كان لهؤلاء الاحابيش ، في نظامهم المحدَّد ، سيّد خاص يُدعى « بسيّد الاحابيش » ، يقوم بالقيادة العليا ، ويكون عربيًّا من تهامة ، منتسبًا ، على الغالب ، الى بني كِنانة[1] . الا اذا كان رجال العسكر البيض كلهم من خزاعة ، فيجب اذ ذاك ان يكون « السيّد » خزاعيًا[2] . وهو تقليد كان معروفًا قبل ان تحالف الخزاعيّون مع محمد[3] . ولا يخفى ان المنافسة بين القبيلتين المشهورتين بتغذية جيش « الاحابيش » برجالهما ، وهما غِفار واسلم ، كانت تبلغ اشدّها احيانًا ، فتضطرّ السلطة الى تعيين « سيّدَين » للاحابيش من كل قبيلة سيّد[4] .

ولم يكن مركز السيد المذكور بالهيّن ؛ ولم يكن السيد نفسه بالمتساهل او المتغافل عما يوليه منصبه من سلطة ، وشموخ ، وصراحة في الكلام تتجاوز احيانًا الى القحة ، لا يهاب احدًا من امثاله البدو ، ولا من القرشيين انفسهم ، وان يكن ابا سفيان . بل تراه لا يتنازل عن زهوه ، ولا يخفي تلك العنجهية العابثة ، النازعة الى الاستقلال بالرأي والانفراد بالعمل ، الماثلة من اشهر خصائص البدو[5] . تفهم ذلك اذا ما عرفنا ان ارباب « البطحاء » من سراة قُريش ، وقد كان لهم وحدهم حقّ عقد المجالس والاندية في « فِناء » الكعبة[6] ، دُفعوا الى مشاركة بني غفار هذا الحق ، لما قام به هؤلاء من خدم جليلة اثناء الحروب المتتابعة[7] . هذا ، ويظهر من تاريخ السنوات الستّ الخافلة بالوقائع المطّردة بين

١) ابن هشام : السيرة ٢٤٥ ؛ العقد ٢ : ٤٧

٢) الاغاني ١٩ : ٧٦ ؛ اسد الغابة ٢ : ١٦

٣) وبعد المحالفة ايضًا ، لان الحلف لم يشمل جميع بطون خزاعة (اسد الغابة ٢ : ١٦) ، بل ان منهم ، كبني المصطلق ، مَن حاربوا النبي فكسرهم شرّ كسرة .

٤) ابن الاثير : الكامل (الطبعة المصرية) ١ : ٢٤٨ . ويذكر الاغاني (١٩ : ٧٩) سيدًا للاحابيش قُتل في الحرب .

٥) ابن هشام : السيرة ٥٨٢ ، وقابل بما في ٢٤٥–٢٤٦ .

٦) وهو معنى التعبير الجاري : « وقريش في انديتهم » اسد الغابة ٢ : ٢٥٧ ؛ ابن هشام : السيرة ٢٠٢ ؛ ثم اسد الغابة ٤ : ٥٥، ٥٦، ٥٨، ؛ وقابل بما في كتابنا *La Mecque à la veille de l'Hégire*, p. 87... ; 136

٧) اسد الغابة ٣ : ١٥٠ – ولم يكن لبني خزاعة ، على ما لهم من منزلة في مكة ، شيء من هذا الحق في فناء الكعبة . والسبب ان القرشيين ، لو سمحوا لخزاعة بشيء من ذلك ،

النبي واقاربه المكيين ان « سيادة » الاحابيش كانت تنتقل من واحد الى واحد، فلا تطول مدة «السيد » في منصبه. والسبب ان المكيين، على حاجتهم الى معونة اولئك البدو ، لم يكونوا ليغفلوا عما يتصف به سادة القفر من نزوع الى الاستبداد بالسلطة ، وميل الى العبث بالاوامر ، فكانوا لا يدعون السيد منهم مدة طويلة على رأس الجيش خوفاً من سيطرة عسكرية . وهكذا عملوا على اضعاف نفوذ السيد، إلا في ما خصّ قيادة الجيش اثناء الحرب، قيادةً زمنية وقتية. وهو ما تشير اليه النصوص القديمة بقولها: « وكان يومئذٍ سيّد الاحابيش»[1]. ولا يخفى ان هذا التقلقل في المنصب، وهذه المراقبة الغيرى من قبل القرشيين لمن اوضح الادلة على التقاليد الديمقراطية ، وعلى تنبّه المكيين وحذرهم المتيقّظ[2].

ثم ان هؤلاء التجار الحاذقين كانوا ابعد من ان يغفلوا عما قد يجرّه من خطر ذاك الجيش الاسود المسلّح ، اذا ما تُرك دون رقابة ولا ضبط . وهم لم ينسوا بعد ما اتصف به جدود احابيشهم، ابناء مملكة أكسوم القوية، من بطش وتنكيل ، عندما اكتسحوا الحجاز ، عام « الفيل » ، فاحتلّوا مكة نفسها . تلك الذكريات ، على غموضها ، كانت جديرةً بان تُثير في اذهان السودان المتقلقلة نزعات قد تكون شديدة الخطر على اهل مكة . ولا يخفى ان مملكة الحبش ، اذ ذاك ، كانت دولة حربية شديدة الوطأة ، لا تزال تتحيّن الفرص للعودة الى التدخل بشؤون جزيرة العرب[3]. هذه الدولة التاريخية القوية، الطموحة غير تلك الدولة الحبشية الوهمية، المتولّدة من تصوّرات جمّاع كتب « الصحيح »،

لتعرّضوا لخطر تقدر مبلغه اذا ما عرفنا ان خزاعة كانت صاحبة السدانة في الكعبة وسائد مكة ، قبل ان يغتصب قُصيّ منها هذا الحقّ . واذًا فهي لا تزال تأسف لضيعته وتحنّ الى ماضيها القريب.

١) ابو سعد : الطبقات ٢ : ٧٠ : الاغاني ١٤ : ٣٠ ، ١٩ : ٧٩ ؛ ابن هشام ٢٤٥ ، ٧٤٢ ؛ العقد ٢ : ٤٧ ؛ وكان من اشهر اولئك السادة « سيّد القارة » ؛ البخاري : الصحيح (طبعة Krehl) ٣ : ٥٩ ؛ والقارة بطن من كنانة مشهور ببرمانه Wüstenfeld, *Register*, ١١٩ ؛ الطبري ١ : ١٥٢٨ ؛ اسد الغابة ٣ : ٢٠٧ ، ويظهر فيها ان القارة من أسد خزيمة ، قابل بما في ابن هشام ٢٤٥

٢) مسلم : الصحيح ١ : ٤٨٦ ٣) راجع كتابنا *La Mecque...*, p 290

يحكمها نجاشي ميّال للاسلام[1] ، له اخ يأتي المدينة متطوّعاً لخدمة النبي[2] . يفيدنا التاريخ ان رجال الدولة الحبشية كانوا ينازعون المكيين انفسهم ، وفي مدينتهم مكة ، تجارة الهند ، وكان اسطولهم يسيطر على البحر الاحمر . لهذه الاسباب وما يماثلها كان القرشيون شديدي الحذر من رجالهم السود ، فعملوا على ضبطهم بانشاء ذاك النظام العسكري الذي اشرنا اليه . فاحاطوا الاحابيش بعدد من الضباط والقوّاد العرب مسؤولين عن اخلاص رجالهم وطاعتهم . وهو ما قام به اولئك « السادة » من بدو تهامة . ولقد كان من غاية القرشيين ، فوق ضبط الاحابيش ومراقبتهم ، ان هذا النظام يعزّز العاطفة الوطنية في اولئك البدو ، فيدفعهم الى الالتفاف حول قريش ، متناسين احقادهم وثاراتهم .

ولم يختصّ « الاحابيش » بسيدهم المستقلّ فقط . بل كان لهم ، فوق ذلك ، رايتهم الخاصة ، يحاربون وراءها الى جانب القرشيين[3] . وكان لهم ايضاً ميزات متعدّدة مدوّنة كتابةً في معاهدة تنصّ بالتفصيل على كيفية معاونتهم للجيش القرشي ، وعلى مدة خدمتهم العسكرية ، وما يتمتعون به من حصانات وامتيازات ، وما يتناولون من مرتّبات مقرّرة . حتى اذا اراد القرشيون ان يتملّصوا من تنفيذ شيء من هذه الشروط ، هاج الاحابيش فذهب سيدهم ، وانذر رؤساء قريش باحترام شروط الحلف والمعاقدة[4] ، مطالباً لرجاله بحقهم من الحماية والمنعة في ارض مكة[5] . وكان العرب من « الاحابيش » اعلق ببدويتهم من ان يتصاغروا للحضريين من اهل مكة . هم يعاونونهم في الحرب ، ولكنهم لا يرضون بان يعاملهم المكيّون معاملة المأجورين . فوجب على اهل مكة ان

١) ابن هشام ٧١٧

٢) اسد الغابة ٣ : ١٤٤ ، ٥ : ٣٢٣

٣) الواقدي ١٩٩ ، ٢٠١

٤) قائلاً : « حالفناكم وعاقدناكم . . . » الطبري ١ : ١٥٢٩ — يذكر ابن جبير في رحلته (*Travels*³, 97,131) ان حرس امراء مكة الخاصّ كان ، في عصره ، مؤلّفاً من السودان . ولم تكد الحالة تتغيّر من ذاك العهد الى يومنا . راجع Burckhardt, *Voyages* I, L. Roches, *Dix ans à travers l'Islam*, 1834-1844, p. 110 ؛ 152, 328, 329

٥) اسد الغابة ٣ : ١١٦

يترضوهم دائماً ، ولاسيما « سادتهم » ، لئلا يثوروا ويُثيروا الجيش معهم ، او لئلا « ينفروا بالاحابيش » ، كما كان يُقال[1] .

٣

كل ما تقدّم من التفاصيل يقودنا بالفكر الى قرطاجة ، الى البندقية ، الى تلك الجمهوريات التجارية التي تشترك مع مكة الجاهلية في الكثير من مظاهرها . ولا يجد الباحث صعوبة في ان يستخرج من النصوص المتعلقة « بالاحابيش » موادّ صالحة لتأليف رواية قرشية لا تبعد في شيء عن سالّمبو « *Salammbô* » فابن جُدعان ، وابو سفيان[2] ، وغير واحد من زملائها « الاشراف » ، سراة « البطحاء »[3] ، يحلّون بسهولة محل ابطال فلوبير من امثال أميلكار ، وهانون ، وغيرهما . وفي تلك البيئة الجاهلية الخليعة ، التي كثيراً ما شكا القرآن من عبثها وفساد اخلاقها ، لا يندر ان يرى الباحث واحدة من « ذوات البطاقين »[4] العديدات ، تقوم مقام بطلة الرواية المذكورة[5] . فالمحيطان يتشابهان ببسيطرة الماليين من ارباب التجارة ، واصحاب رؤوس الاموال ، وبحاجتهم جميعاً الى حماية الجنود المأجورين .

١) وهو معنى : « لأنفرنّ بالاحابيش » ، ابن سعد : الطبقات ١ : ٧٠

٢) قابل بما في الاغاني ١٩ : ٧٥

٣) لا تختصّ لفظة « البطحاء » بالدلالة على « مجرى السيل » ، انما تفيد ايضاً « الحصى » او « الحصباء » . قابل بما في اسد الغابة ٤ : ٤٣ : « فبحث بيده في البطحاء » . نذكر هذا لنبرّر شرح هوبير في رحلته : Ch. Huber, *Voyage dans l'Arabie centrale*, p. 54 (extrait du *Bull. Soc. Géogr.* de Paris, 1884-1885) فردّ على قد وجه اليه قلم التحرير في المجلّة المذكورة . ولا شكّ في ان هوبير ، المتضلّع من اللهجة البدوية ، دوّن الشرح الذي سمعه في ذاك المكان ، فلم يخطىء القصد مستعملاً « الشامل بدل المشمول » كما نرى في تعليق المجلّة . وليقابَل ذلك ايضاً بهذا التعبير في اسد الغابة ٤ : ٧٣ : « اناخ بالأبطح ثم كوّم كوماً من البطحاء » ، وبما في السهودي : الوفاء ١ : ٩٤ ، ٢ : ١٦٤ : ابن الاثير : النهاية ١ : ٨٣ ، ٤ : ٢٣٨ ؛ شيخو : شعراء النصرانية ٧٧١

٤) راجع كتابنا في *Fâtima...* p. 5

٥) ولنشر ، جذة المناسبة ، الى اولئك الفتيات البدويّات اللواتي كان يُعهد اليهنّ ، في ميدان الحرب ، بحفظ القبّة المقدّسة او بيت الحجر المؤلّه . اطلب بحثنا في *Le culte des bétyles...* dans *L'Arabie occidentale avant l'hégire*, p. 112... 124

ولنترك هذه الذكريات القديمة الغارقة في غموض التاريخ الجاهلي ، منتقلين الى مظهر حديث في الجيوش العصرية لا يخلو من شبه بنظام الاحابيش . هو نظام الفرق الايطالية المعروفة « بالعساكر » « *askaris* » او نظام جيوش المستعمرات . وفيها تتألف الجنود من السودان ، وضباط الجيش من البيضان ، كما كان في جيش الأحابيش ، ان جاز لنا ان نطلق لفظة البيضان على بدو الحجاز السُمر الالوان . وقد اشرنا الى ان جميع الضباط والقوّاد والموظفين في ذاك الجيش الافريقي ، من المدعوّين بالسادة ، والرؤساء ، والعرفاء ، كانوا كلهم من العرب ولهم وحدهم الحق « بالأنفال » او اسلاب العدو[1] . وقد كان من الطبيعي ان تفتكر قريش لتعيين هؤلاء الضباط بمن كان يلجأ الى حرمها من الخلعاء والمتشرّدين كالبرّاد ، وابي الطمحان ، وحاجز ، والحرث بن ظالم ، فتسلّحهم[2] وتعيّنهم على رأس أحابيشها . ولما كانت « الحرب خدعة »[3] ، ولما كانوا اشهر ما يشتهرون به من الصفات الخداع والجرأة ، كان لا بدّ ان يتكل عليهم رجال الملأ ، او مجلس القبيلة الاعلى ، فيتنادون من انحاء الجزيرة ، ويؤجرون الملأ سيوفهم ، متضجّرين من اقامتهم بالسكينة والراحة في ارض الحَرَم[4] . ولم تكن مكّة لتجهل قيمة مساعديها هؤلاء ، فلا تبخسهم حقّهم ، بل تعاملهم معاملة الضيف الكريم والجار العزيز ، وان اساء الجوار[5] ، فتغضّ النظر عن المساوئ وتنعم عليهم بلقب « حلفاء قريش » ، وهو لقب يجرّ منافع ماديّة ، وواجبات حربية[6] . وكان من فضل هذا التدبير أن يشغل هؤلاء الشذّاذ فيصرف الى طريقة نافعة

١) وقد يعد السادة عبيدهم بالإعتاق ، اذا ما انتصروا ، كما جرى لوحشي في أُحد . وهو ما كان يُجرى عليه في جيوش النبي ايضاً . اما المقاتلة من الأحرار فكان لهم الحقّ بسهمهم في الاسلاب .

٢) الاغاني ١٠ : ٢٨

٣) راجع *Berceau*, I, 248 ، وكثير من هؤلاء الحلفاء كانوا يسمّون الجواد في ركضه ، اسد الغابة ٥ : ١٧٨ ؛ *Berceau*, I, 248 وتراجم اللصوص تتوسّع معجبة بهذه الحيل

٤) كابي الطمحان ، راجع *Berceau*, I, 172

٥) قابل بما في الاغاني ١٩ : ٧٥ عن موقف البرّاد في مكة ، وكيف جرّ القبيلة ، بافعاله وتحدياته ، الى حرب الفجار .

٦) راجع ابن سعد : الطبقات ٣ . وكان حلفاء الانصار العديدون من اليهود يشتركون في « مشاهد » النبي ، ولنكتفِ بالاشارة الى حلفاء بَلِي ، اسد الغابة ٣ : ٢٢٧ ، ٢٤٧ ، ٢٦٩ ، ٢٩٨ ،

ميلهم الفطري للغزو[1] .

ثم ان مكة كانت تستلحق غفارًا ، وخزاعة ، وغيرهما من القبائل البدوية البطّاشة بما تدفعه لسادتها من مال ، فتستخدمهم جميعاً في المحافظة على مصالحها الخاصة . قد لا يكون في هذه التدابير مظاهر جليّة للشجاعة القرشية ، ولا دلائل على جرأة اولئك الرأسماليين ، ولكنها تُشير الى ما اتصفت به قريش من دهاء وحذق ومرونة في السياسة والادارة ، حتى اصبح من نوع الامثال الكلام عن « أحلام قريش » و « حلماء قريش »[2] .

أوَهل نستغرب ، بعد كلّ ما تقدم ، الّا يكون مدوّنو « السيرة » انتبهوا لجميع هذه الامور المتشعبة المتشابكة ، وهم الذين أثّرت فيهم العواطف القومية المتأخرة ، فقادتهم الى ضيق المجال في البحث والتصوّر ، والى الايمان الدائم بسيطرة قريش[3] حتى في العصر الجاهلي ! أوَهل نستغرب ان يكون المستشرقون انفسهم أُخذوا بهذا العمل ، فظلّوا مدّة طويلة لا يشعرون بضرورة النقد الدقيق في درس أصول ذاك التاريخ ![4]

ولقد عرضنا لهذا الموضوع في كتابنا « فاطمة وبنات محمد » (ص ٢٩) فاوردنا تحفّظات قليلة في ما خصّ تلك الاعمال الفائقة قدرة البشر العاديين ، ينسبها المؤرّخون ، دون احتياط ، الى ابطال الهاشميين ، ولاسيما علي بن ابي طالب[5] . ويمتاز الواقدي[6] الشيعي ، بين جميع مدوّني « المغازي » ، بازدرائه كل

---

٥ : ١٠٦ ، ١٤٤ ، ١٤٦ . وهناك حليف ثقفي يحارب مع قريش في حُنين ، اسد الغابة ٤ : ٧

١) راجع *Berceau*, I, 177

٢) اسد الغابة ١ : ٣٧١ ، ٥ : ٣١ ؛ حلم ابي سفيان ، في الاغاني ١٥ : ١١

٣) ولنا الادلة العديدة على الايمان بهذه السيطرة القرشية ، كقول ابن هشام : « كانوا إمام الناس وهاديهم » (السيرة ٩٢٢) ؛ قابل بما في ابن سعد : الطبقات ١ : ٣ ؛ ابن الديبع : تيسير الوصول ٣ : ١٠٨ . وقد درسنا الموضوع في كتابنا عن « يزيد »

٤) قابل بما في C. de Perceval, *Essai*, I, 253 ; Sprenger, *Mohammed*, index s. v. *Ahābīš* ; Grimme *Mohammed*, I, 106 ; Cl. Huart *Hist. des Arabes*, I, 144

٥) راجع *Fāṭima*, 45 ، اما ترجمة علي الواردة في اسد الغابة ٤ : ١٦ فاكثرها مستندة الى النصوص الشيعية .

٦) الواقدي ١٧٩ — وفيه التعبير : « شموني . . . من الاحمر والاسود » وقد يدلّ

قياس في مروياته[1]. اما الآن ، وقد دققنا بعض الشيء في فهم المرسلات العسكرية المكية ، فنتساءل ألا ينبغي لنا ان نزيد من تلك التحفظات ! ونستفيد من هذه الابحاث التمهيدية في نظام مكة الجاهلية ، مواد لنقد « السيرة » نقداً داخلياً. وقد قُيّض لنا ان نبحث في « السيرة » ، في مقال نشرناه منذ ربع قرن بعنوان « عُمر محمد وطريقة التاريخ في السيرة »[2] ، وقلنا فيه عن هذه المجموعة : « لا نرمي الى طرح كل شيء . وبدل ان نقلب هذا البناء الضخم الذي عمل الحديث على رفعه ، لنكتفي بتفكيكه حجراً حجراً ، فنفحص قيمة ما استُعمل فيه من مواد . هو عمل عملٌ ، ولكنه ضروري ! » ولنا الأمل بان هذا البحث في « الاحابيش » يأتي ببرهان جديد يبرّر قولنا السابق . وعلى مَن تقع التبعة ان عمل هذا البرهان على اضعاف الثقة بتلك المواد الاسلامية القديمة ؟

ثم اذا استندنا الى الاقوال الرسمية المتداولة ، نرى علياً ينشأ في كنف محمد ، مَن عرفناه بميله طبعاً الى السلم والطمأنينة[3] . واذاً فلم يكن لهذا المحيط الهادئ ، محيط خديجة وبناتها[4] ، ان يعزّز تلك النزعات الحربية التي نراها ، بعد ذاك ، في زوج فاطمة . ولا يخفى انه كان من آخر مَن هاجر ملتحقاً بالنبي في المدينة . وهو لا يظهر ، قبل وقعة بدر ، في اي معركة من تلك المعارك البسيطة ، المعروفة بالغزوات ، التي كانت تحدث من وقت الى وقت فتبدّد شيئاً من ملل العهد الاول ، عهد الاستقرار في المدينة . اذا استندنا الى هذه المعلومات ، وكلّها مستقاة من « السيرة » ، ومن اجدر كتب « الصحيح » بالثقة ، فلا نرى ما يبرّر ذاك الانقلاب السريع في اطوار الهاشمي الشاب ، ولا كيف انتقل من

« الاسود » على الكتائب السودانية . راجع Caetani, *Annali*, II, index s. v. *Aḥābīš*

١) لا يظهر الامويون في كتابه الا بظهر يثير الضحك فالازدراء ، مثلاً في ص ٢٦٨ — ٢٦٩ اما الهاشميون فكلّهم ، حتى النساء ، على غاية الكمال ، ص ٢٨١—٢٨٢ ، ٢٦٧

٢) *L'âge de Mahomet et la chronologie de la Sîra*, *Jour. asiat.*, 1911¹, 209-250

٣) راجع *Fāṭima*, p. 23 . وقد استغلّت الشيعة هذا القول لتحلّ ، بين علي وابي بكر ، مشكلة « اول من أسلم » . راجع كذلك ترجمة علي في اسد الغابة ٤ : ٦٦ — ٦٨

٤) ... *Fāṭima*, p. 2 وفي القرآن (٣٣ : ٥٩) : « قل . . . لبناتك » وهو يفرض اثنتين على الأقل .

حياة هادئة خفية مدة السنين الاولى الى حياة حربية يُظهر فيها ، منذ اول معركة ، ودون ان يمرّ بطور انتقال طبيعي ، صفات فروسية عجيبة ، ومهارة في الفراك تفرض اختبارًا وتمرّنًا طويلين[1] .

شاء بعضهم ان يرى في تجارة القوافل دافعاً الى النزعة الحربية في باعة مكة وعاملتها ، ومن ثمّ داعياً الى تمرينهم على استعمال الاسلحة المتنوّعة . واننا لنودّ ان نشاركك هذا البعض بقبول فرضية قد تظهر طبيعية ، لو لم يكن القرشيّون قد تخلّصوا قديماً من الهمّ العسكري ، في تنظيم القوافل ، فعهدوا الى غيرهم في حفظها والسهر عليها ، كما رأينا . ولم تكن حادثة الحرث بن هشام المخزومي ، المستقيل عن الحرب حبًّا لعائلته[2] ، بفردية في ذاك المحيط . من الحقّ ان البدو كانوا ينتقمون لأنفسهم من الاهانات المتعدّدة اللاحقة بهم في مصارف مكة ومتاجرها ، فيهزأون بجبن القرشيين ، ويبالغون . ولكن من الحقّ ان تهكّمهم وحده لا يكفي لتبرير هذه الشهرة الواسعة اللاحقة بجبن اهالي مكة . والّا فكيف امكن اعداء محمد من القرشيين ان يتكلوا على اولئك البدو — وهم من عرفوهم بضعف الاخلاص والميل الى النهب والسلب — في الدفاع عن مدينتهم وعن اموالهم ؟ وكيف امكنهم ان يظلّوا مدة طويلة على هذه السياسة الشديدة الخطر ؟

ولنا الشواهد العديدة على ضعف الاخلاص في البدو . نكتفي بالاشارة ، في ذلك ، الى ما قام به بعض الخزاعيين والغفاريين من مصانعة النبي ومحالفته ، بل من التجسّس له على القرشيين[3] بينما كان ذوو قرباهم من ابناء غفار وخزاعة يحاربون ، مأجورين ، في الجيش القرشي . ولنلاحظ ان مجموعات التراجم تتردّد على الغالب في نسبة الصحابة البدو ، تتردّد بين غفار ، وأسلم ، وخزاعة[4] .

١) ولقد أُنكر عليّ عليّ هذا الاختبار ، فيما بعد ، راجع *Fāṭima* p. 29 ، وكيف جرّب ان يدافع عن نفسه ، الاغاني ١٥ : ٤٥

٢) راجع الابيات المنسوبة الى الحرث بن هشام في السيرة ٥٢٢

٣) ولا سيما بنو خزاعة ؛ اسد الغابة ٤ : ٢٩٠ . وهناك غفاريٌّ يُطلع محمدًا على بعث قريش ، الواقدي ٢٠٢ ، قابل بها في Caetani, *Annali*, II, 1071, 1072

٤) اسد الغابة ٣ : ٢٤٤

وهناك رجل من مشاهير غفار ، التحق اولًا بالامويين ونال لقب حليف ، ثم نراه يُقتل ، في سبيل الإسلام ، لدى ابراج خيبر[1] . وليست هذه الحادثة بوحيدة من نوعها . بل ان البدو ، وكأنهم تعوّدوا هذا التقلقل السياسي ، ينتقلون بسهولة من جيش الى جيش وفقًا لميلهم المتردّد او لمبلغ ارباحهم المالية . وكثيرًا ما كانوا ينالون بركات النبي في مساعداتهم له ، كما نالوها كثيرةً ، مدوّنة في كتب الحديث القانونية ، لانخراطهم في الجيش المدني[2] . واذا بقي من شكّ في تفهّم خُلق القرشيين الحربي ، ونفورهم فطرةً من المعارك والمخاطر ، نراه يتبدّد اذا ما القينا لمحةً دقيقة على ما اتخذه المكيون من تحفّظات واستدراكات عديدة خوفًا من مفاجآت تقلب عليهم عسكرهم المأجور . ولم يكن رئيس ذاك العسكر يتردّد في تهديد القرشيين[3] ، اذا ما ابدى هؤلاء اقل معاكسة .

. . .

ويجب الّا نتوهّم وجود نظام عسكري مستقرّ بثكناته او معسكراته ، وكتائبه الدائمة . انما الخدمة المأجورة[4] ، او الاتفاق ، كان لمدّة الحرب فقط ، بل لمدّة غزوة واحدة احيانًا . هذا اذا لم يترك البدو القتال قبل نهاية الاتفاق ، فيفرّون جماعات ، او ينتقلون الى جيش العدوّ . تتحقق فيهم هذه النزعات الفوضوية بتاريخ حصار المدينة ، وحوادث وقعة الخندق . اما زمن السلم ، فكان الخلط بين من على شاكلتهم يعيشون في جوار مواليهم من ارباب المصارف القرشية[5] ، وينتقلون معهم ، في رحلاتهم من مكة ، ليدافعوا عنهم ، او ليدافعوا عن اموالهم وتجاراتهم ، وفي هذه الحالات كانوا يسافرون مع القوافل كما كان يفعل البرّاد . وهكذا كانت مهمة بني غفار وانسبائهم من بدو تهامة ان يحفظوا

١) اسد الغابة ٣ : ٢٧٠ وكان الغفاريّون عديدين في هذا الحصار .

٢) وقد استفادت اسطورة ابي ذرّ من هذه الحالة ، اسد الغابة ٥ : ١٨٧ — ١٨٨

٣) يهدّدهم بالانتقال الى جيش النبي ، الطبري ١ : ١٥٢٩

٤) اما في ما خصّ عدد الجيوش فلا يتفق المؤرخون . هذا الواحدي يذكر «الفين» وابن سعد يشير الى « اربعة الاف » من الاحابيش والبدو (الطبقات ٢ : ٤٧)

٥) كان الغرباء ، في مكة ، يتألّفون بخدمة الأشراف ؛ اطلب اسد الغابة ٣ : ٢٨٨ ؛ وعلى الغريب ان يلتجئ الى احد إمّا عن طريق « الحلف » ، او عن طريق « الجوار » .

التجار ، ويسهرون على القوافل القرشية ، يؤجرون اربابها ابلهم وسيوفهم بثمن باهظ بعض الاحيان !

اما الاحباش ، او سودان افريقية ، فكان يختلف عن شأن البدو . كان السودان مفروضا عليهم خراج ، او ضريبة يومية ، يؤدونها الى ساداتهم ، وقد لا يصلون الى حريتهم الا بشق النفس والعمل المجهد في حوانيت المدينة . وهم ، فوق ذلك ، مخترعون مستعدون لتلبية حوائجهم لدى اي طلب . وكان اكثر هؤلاء الموالي من حرّاس المخزوميين ، ارباب الاموال الذين كانوا يستغلون تجارة الرقيق استغلالهم سائر مرافق الحياة الاقتصادية اذ ذاك . فاذا دنت ساعة الخطر ، وسمع « الصريخ » وهو صوت الانذار[1] ، كان يهتم القرشيون بتنظيم العساكر . وكثيرا ما تطلب هذا التنظيم الاسابيع الطويلة ، بل الأشهر بكاملها . وهو ما حدث في بعثة أحد ، فقد اضاع المستعدون سنة كاملة . وكان يقوم بالتجييش ، او التعبئة ، بعض الأشراف او كبار الصيارفة من اهل مكة ، اولئك الواسعو العلاقات ، الكثيرو المعارف والاصدقاء . والاقارب[2] في القبائل البدوية . فيذهبون من حي الى حي في مجاهل تهامة ومناطق الغور ، يستأجرون الرجال[3] . وقد يرتقون جبال السراة في جنوبي شرقي الطائف ، ليستنزلوا الأزد ، وهم من اشجع سكان الحجاز[4] . فيمدون الجميع بالمال الكثير والأسلاب العديدة ، ويرجعون وراءهم مجموعة من الابطال والصعاليك واللصوص ، « حرشة الضباب » و« أكلة اليرابيع » ، قطّاع الطرق[5] « وسرّاق الحجيج » . بينما كان الباقون في مكة من

١) ابو « منذر الجيش » ، مسلم : الصحيح ١ : ٢١٩ ، قابل بما في ابن الأثير : النهاية ٣ : ١٠٠ ، ٤ : ١٢٦

٢) ولقد كان من شيوخ البدو وسادتهم من يشاركون القرشيين بتجاراتهم ، ومنهم من يصاهرونهم ، راجع ابن هشام ٢٧٣ ، ثم *Berceau*, I, 289

٣) ابن هشام ٥٥٦

٤) هم حلفاء الهاشميين وغيرهم من اشراف مكة (اسد الغابة ٣ : ٢٥٠ ، ٥ : ١١١) وحلفاء امية (اسد الغابة ٣ : ٤٠٢) . وقد شهد الحديث بشجاعتهم فورد : « نعم الحيّ الأزد والاشرون لا يفرّون في القتال ولا ينلون » (اسد الغابة ٥ : ٢٢٩)

٥) كانت القوافل القرشية تمر بمنازل بني غفار (اسد الغابة ٥ : ١٨٧)

السادة يهتمون بتسليح « الاحابيش »[1] وتنظيمهم . وهم ، في تلك الاحوال ، يترضونهم بالأكل الطيب الذي لا يذوقونه في حياتهم العادية ، فيطعمونهم الخزيرة ، وهي حساء فيه من العجين ومن اللحم المقطّع[2] . ولا تكاد تنتهي الحرب حتى تتفرّق هذه الكتائب جميعها ، والّا فان القرشيين يعجلون في تفريقها ، كما جرى لهم بعد وقعة الخندق . ذلك انهم كانوا يخافون من حرب داخلية تتلو المعركة ، فلا تقل شدّة عليهم من العدوّ الخارجي ، لما تعرّض اموالهم ومتاجرهم ومصارفهم وبيوتهم لطمع اولئك الشذّاذ المسلّحين . واذًا فمن الضروري ان يعود البدو الى منازلهم من سهول تهامة ، والعبيد الى معاملهم في المدينة . وكذلك تعود المطايا ، واكثرها الابل — لأن الخيل من خصوصيات السادة وحدهم[3] — الى المراعي ، او الى اصحابها من البدو الذين استؤجرت منهم ؛ وتعود الأسلحة الى مخازنها الخاصّة في مكة .

ولم تكن هذه الأسلحة وافرة ، بل لم تكن كافية لجميع الاحابيش ، كما قد يُستخرج من قول كعب بن مالك في وقعة أُحد — ولا نرى ما يُرجح صحّة قوله — مشيرًا الى

أحابيش منهم حاسرٌ ومقنّعُ !

وقد يكون الحاسرون من اولئك المكلّفين حفظ الأمتعة . الّا ان يقصد الشاعر رماة الحبش المشهورين باستعمال الحراب[4] ، وهي آلات لا يقرّ العرب بانها

---

١) ابن الاثير : الكامل ١ : ٣٤٧ ؛ الاغاني ١٩ : ٧٧

٢) ابو يوسف : كتاب الخراج ١٢٨ ؛ وخاصّة الجاحظ : البخلاء ٢٥٨ ؛ وقابل بما في ابن هشام ٢٧٤ ؛ من ان الخزيرة أكلة مكية . يطبخها الانصار لمحمّد في المدينة ، اسد الغابة ٣ : ٣٥٩ ؛ ٥ : ٤٨٠ ، ٤٨١ ؛ ابن الاثير : النهاية ١ : ٣٩١ — ٣٩٢ ، تطبخها فاطمة للنبي السهودي ١ : ٣٣٢ ، ٣٦٦ ؛ البخاري ٤ : ١١٠

٣) اطلب ... *Fâtima* , p. 82 ; *Berceau*, I, 137 ولم يتفق للعرب مرّة بان منحوا بفرس للقيام « بالمقيلة » (اسد الغابة ٣ : ٣٤٣) . وهذا على خلاف ما يزعمه المحدّثون ، فيدلّون على جهلهم بالحياة في القفر وبما يمثّله الفرس في نظر سكان البادية .

٤) ابن هشام : السيرة ٣١٤

٥) اطلب القسم الاول من هذا البحث ، ص ١٠

من اسلحة الحرب.

هذا ولا يخفى ان وجود الجيش المسلح ، وان وقتياً ، يفرض وجود مخازن للاسلحة في يد السلطة الحاكمة ؛ نقول هذا مع شعورنا بصعوبة الاستدلال على وجود الادارات العامة ، والنظم البلدية ، في مكة قبل الاسلام[1]. فليس ، في كل ما بين ايدينا من النصوص ، اشارة واحدة الى عمل الاسلحة والمعدات الحربية ، ولا الى حفظها ، في تلك العاصمة التجارية ، التي طالما اغدق المؤرخون على سكانها مجاناً صفات الشجاعة والبطش والفروسية . كانت تأتيها جميع الاسلحة من الخارج : من الهند ، واليمن ، والشام . فكان سكانها ، من السراة خاصة ، ومن ورائهم اهل البدو يتفاخرون « بشرفيات » بُصرى[2] وبلاد أدوم او « مشارف الشام » ، وخاصة بالدروع النفيسة الثمينة التي كان يبلغ من افتخارهم بها ، وحرصهم عليها ، أنهم كانوا يتوارثونها أباً عن جد[3] . وقد بلغوا بثمن واحدة منها ، مع الحسام ، مبلغ مائة دينار[4]. وكان اكثر السلب قيمةً ، بعد وقعة بدر ، بضع دروع[5] اصاب علياً واحدة منها حفظها حتى جعل منها صداق امرأته فاطمة بنت النبي . ويذكر الرواة انه كان لصفوان بن امية الجمحي ثلاثون درعاً ، فكان يُعد من اغنى ارباب المصارف في مكة[6].

لم يكن في مكة خزائن عامة للسلاح ، انما كان فيها خزائن خاصة . كل

١) اطلب كتابنا ... *La Mecque à la veille de l'hégire*, p.62

٢) ابن السكيت : تهذيب الالفاظ (طبعة شيخو) ١٦٥ ؛ الاغاني ١١ : ٩١ ، ١٢ : ١٢٥ ، ١٢٦ .

٣) قابل بما في القرآن ٢١ : ٨٠ ، وفيه دورة تعبيرية للدلالة على الدرع : « وعلّمناه صَنْعَةَ لَبوسٍ لكم لتُحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون ! ». وهؤلاء هم الشراء يفخرون بقولهم انهم « اكثر دروعاً صافيات » (ابو يحجن (Abel) ١١ : ٢٠١) ؛ وراجع *La Mecque*, p. 191, 204

٤) اسد الغابة ٥ : ٩٣

٥) الاغاني ٤ : ٢٩ . وكان لمحمد درعان ، او درع ضاعفة تغطي الظهر والبطن (اسد الغابة ٥ : ١٨٤) والدرع سلاح وافر الثمن في بلاد العرب ، اسد الغابة ٥ : ٣٥٩ ؛ الاغاني ١٠ : ١٤ .

٦) ابو داود : السنن (طبعة الهند) ٣ : ٦٩ ؛ ابن سعد : الطبقات ٢ : ١٠٨

بطن ، كل أسرة ، كبني جمح وبني جدعان وغيرهم كان لهم مخازن ومستودعات يجمعون فيها الأسلحة[1] . فيستعملونها ، إبان السلم ادوات واعراضاً للقايضة ، او يسلحون بها حرس قوافلهم . وهكذا رأينا ابن جُدعان وحده يُسلح الف بدوي من كنانة[2] . وتشير النصوص الى مبالغ عظيمة من الحراب والسيوف والدروع يحتفظ بها ارباب المصارف المكية . ومنهم صفوان بن امية المذكور آنفاً[3] ؛ ونوفل بن الحرث الهاشمي ، ولم يكن مخزنه ليقلّ كثيراً عن مخزن صفوان . ونحن نعرف انه افتدى نفسه من النبي ، في معركة بدر ، بالف من الحراب[4] . ولم يكن النبي ليغفل عن هذه المستودعات الخاصة في مسقط رأسه ، فاستغلّها كما استغلّ المصارف القرشية في تنظيم جيشه واستعداده لغزوة هوازن ؛ فاخذ من نوفل وحده ثلاثة آلاف حربة[5] .

. . .

ولنعد الى سياسة الحذر والتيقّظ التي كان يقوم بها المكيون بالنظر الى احابيشهم وحلفائهم من البدو ، فانها تذكرنا بسياسة البيزنطيين تجاه معاونيهم من الغساسنة المكلّفين مراقبة الحدود السورية . وقد كان البيزنطيون ، قبيل المعركة او الغزوة ، يفتحون للغساسنة مخازن دمشق[6] وبُصرى ، فيسلحونهم ،

---

١) الطبري ١ : ١٦٥١ ، ١٦٣٠ ؛ الواقدي ٢٥ ، ٣٦ ؛ ابن الاثير : الموضع المذكور . وكذلك كانت الحالة في الطائف ؛ ابو محجن : الموضع المذكور .

٢) الاغاني ١٩ : ٧٦ ، ٧٨ ؛ الواقدي ٢٠٣

٣) ابن حنبل : المسند ٣ : ٤٠١ ، ٦ : ٤٦٥ ؛ اسد الغابة ٣ : ٢٢ . وهذا خالد بن الوليد « جعل دوابّه في سبيل الله » ابو عبيد : الغريب (المخطوطة المذكورة) ص ١٠٠ ؛ ابن الاثير : النهاية ١ : ١٩٥ ، ٢ : ٢٠٠

٤) اسد الغابة ٥ : ٤٦ . وقد كان مستودع اسلحته في جدّة . وكان المسلمون ، في اول عهدهم ، تعوزهم الاسلحة ولم يكن يصنعها الا اليهود في يثرب . قابل بما في اسد الغابة ٣ : ٤١٤ . وهناك ذكر لصفّ يعطيها النبي احد المتحاربين فتتحوّل الى سيف (اسد الغابة ٢ : ٣) وثلاثمائة درع وُجدت في دومة الجندل (ابن سعد : الطبقات ٢ : ١٢٠)

٥) اسد الغابة ٥ : ٤٥ . ويذكر المصدر نفسه دروع خالد بن الوليد (اسد الغابة ٥ : ٢٢٥ ؛ ابن الاثير : النهاية ٣ : ٥٩ — ٦٠)

٦) لم يرد ذكر لمدينة دمشق في النصوص العربية القديمة . انما كان الذكر لبُصرى ، وهي

ويضاعفون ذخيرتهم العادية من الحنطة . حتى اذا انتهت الحرب نُزعت الاسلحة من البدو ، وأعيدت الى مستودعاتها البيزنطية . تلك سياسة حكيمة دفع اليها اختبار البيزنطيين اخلاق البدو المضطربة المتقلقلة ، فحذروا منهم ، واحتاطوا . وكانوا يبالغون في تلك الحيطة حتى انهم كانوا اذا ما شكوا في اخلاص القبيلة قطعوا عنهم ذخيرة الحنطة نفسها[1] ، واقفلوا في وجوههم حدود الامبراطورية .

على نحو من هذه السياسة كانت سياسة القرشيين بالنظر الى احابيشهم وحلفائهم . الّا ان هناك استثناء في ما خصّ « سيّد الاحابيش » وبعض « الحلفاء » و « الطرداء » من الذين أنعم عليهم بلقب « حلفاء قريش » . فان هذا اللقب كان يولّيهم ، من الحقوق المتنوّعة ، حق الاقامة في مكة[2] ، ذاك الحقّ الذي نالوه بتضحياتهم العديدة ، بل بدمهم يسفكونه في سبيل الدفاع عن تلك الجمهورية التجارية . وهؤلاء قتل بدر فيهم العدد العديد من « حلفاء قريش »[3] . فكان اذاً لقيادة الاحابيش ، مثلي اولئك الغفاريين الفرضويين ، مركز منظور اليه في مكة بل مقام شبه رسمي . وكان لهم ناديهم الخاص[4] ، في النقطة المتوسطة من المدينة ، في فناء الكعبة المقدسة ، لا في ضواحي البلدة من « الشعاب » و « الظواهر »[5] . كان لهم حق الاشتراك بالاجتماعات القرشية ، يتكلمون فيها بجرأة ، وقد يفرضون ارادتهم ، كما جرى لابن الدُجَنّة[6] اذ دافع عن ابي بكر فاتخذه تحت حمايته ، عندما وجد عليه قومه بسبب ما اظهره

آخر محطات القوافل القرشية مما يلي الشام .

١) راجع Noeldeke, *Die Ghassân. Fürsten*, p. 29

٢) ولم يكن ليتزع منهم هذا الحق الا تنازل رسمي يقومون به أمام الكعبة ، راجع اسد الغابة ٣ : ٣٨٦ ، ٤ : ٥٤

٣) ابن هشام ٥٠٧

٤) كان للأسر الاستقراطية انديتها الخاصة قرب الكعبة ، ابن هشام ٨٢٢ ، ٩٩٣ ؛ ابن سعد : الطبقات ١ : ١٣٧

٥) وفيها كانوا يحشرون السوقة ورعاع القوم ؛ الاغاني ١ : ١٥٦

٦) او الدُجَيْنة ، اطلب ابن هشام : السيرة ٣٤٦ ، والاسم مضطرب الضبط .

من الميل للدعوة الاسلامية ، قبل الهجرة[1] . وإبان مفاوضات الحُدَيبية ، نرى القرشيين يختارون سيّد الاحابيش فيوفدونه الى محمد مندوباً مفوَّضاً . وذلك وقت كانت مكة تحاول، بهذه المداورات السياسة ، ستر عجزها الحربي في كفاح النبي . واذ رأت نفسها مضطرّةً الى عقد الصلح ، ولمّا لم تشأ ان تُرسل لمفاوضة محمد احد أشرافها القرشيين، فتدلّ بذلك على اضطرابها وحاجتها الى السلم ، عهدت الى رئيس معاونيها وحلفائها من البدو، وهو « سيّد الاحابيش »، واسمه حُلَيس ابن علقمة . وقد وصفه لنا التاريخ الرسمي رجلًا تقيًّا « يتألّه »[2]، وهي صفة نادرة جدًّا في بدو تهامة الأجلاف . وبينا كانت المفاوضات تجري بصعوبة ، كاد احد موفدي النبي في مكة يلاقي حتفه لولا تدخل بعض بني قومه من خزاعي الاحابيش[3] .

وكان سكّان مكة ، اذا ما ارتحل عنهم جيش الاحابيش وسائر المأجورين من العسكر ، بدل ان يتنفّسوا الصعداء لتخلّصهم من هؤلاء الشذّاذ الفوضويين، يوجسون خوفاً .ويعتريهم القلق اذ يرون المدينة ، ولاحامية فيها ، عرضة لأول غازٍ[4] . هكذا كانت عاطفة السكّان من القلق ، بعد ان ارتحلت عنهم تلك الكتيبة المأجورة المنظَّمة ، على غاية ما يمكن من السرعة، المُرسلة لنصرة قافلة بدر . حتى اضطُرّ احد سادة البدو الى تهدئة الخواطر في مكة[5] . ومع هذا ، فلم يكن قد ذهب من « الاحابيش » الاّ عدد قليل لم يقوَ القرشيون على جمع اكثر منه ، فالحقوه بسادتهم المسرعين الى مكان الحادثة . اما الباقون فلم يكن موقفهم على شيء من الوضوح بالنظر الى تلك الحرب الجديدة . أيبقون على

---

١) ابن هشام ٣٤٥ – ٣٤٦ ؛ البخاري : الصحيح ٢ : ٥١ ؛ وهذا حُليس يلوم ابا سفيان بثبرة قرية في أُحد ؛ الاغاني ١٤ : ٢١ – ٢٢ ، قابل بما في ابن سعد : الطبقات ٢ : ٧٠

٢) ابن هشام : السيرة ٧٤٣–٧٤٥ ؛ الطبري ١ : ١٥٢٨–١٥٢٩ ؛ الاغاني ٤ : ١٩ ؛ ابن سعد : الطبقات ٢ : ٧٠ وفيها ان حُليس « كان يتألّه » وابو يوسف في كتاب الخراج (طبعة مصر) ٢٤٨ يدعوه ابن الحُلَس .

٣) الواقدي ٣٥٣ ؛ ابن هشام ٧٤٥–٧٤٦ الطبري ١ : ١٥٤١ ؛ اسد الغابة ٢ : ١٦

٤) ولم يكن فيها شرطة بلدية . راجع . . . *La Mecque*, p. 64

٥) ابن هشام ٤٢٣ ؛ الطبري ١ : ١٣٩٦ ؛ الواقدي ٢١–٢٢

عهدهم لمكة ؟ أم تفويهم التجارب فينضمون لبدو الحوار ويهجمون منتقمين من هذه المدينة التي طالما أهانتهم واغاظتهم بطامع اهليهـا ، ومظاهر ترفهم وازدرائهم؟ [1] فكان للمكيين ، والحالة هـذه ، مل. الحق بان يخافوا ، ويحاذروا ، قلقين مضطربين كلما فكروا بتلك الاحقاد المتراحة المتداعية في المعامل ، والمصانع ، ومحلات الاشغال الشاقة المنتشرة في ضواحي المدينة يملأها العبيد من سودان وغيرهم ، وبين جولهم من « الأبّاقين »[2] المتغلغلين في مجاهل تهامة ومطاوي الغور . حتى اذا قام فيهم رجل ابرز شخصية من عامتهم ، كأبي بشير[3] مثلاً ، التفوا حوله ، ولجأ اليهم فضخم عددهم كثيرٌ من المظلومين ، من ضحايا النظام الاجتماعي في مكة ، من « المستضعفين »[4] ، على قول « السيرة »، ومن اولئك الذين لا يرضيهم نظام فيقضون الحياة مفتشين عن غيره ، متفائلين بأيّ انقلاب كان . ثم ينتقل هؤلاء جميعهم الى المدينة ، فيستقبلهم النبي ، ويُرسلهم في « حرب العصابات » كما نقول اليوم، فيقطعون الطرقات ويسلبون المسافرين ، ويقتلون سادتهم بالأمس[5]، « لا يظفرون برجل من قريش — على حدّ قول ابن هشام — الاّ قتلوه ، ولا يمرّ بهم عير الاّ اقتطعوها »[6] ، وفقاً لما عُرف من التقاليد المتقادمة في بني غفار !

ومما كان ينشر الذعر بين المكيين في تلك الاحوال الاضطرابية ، اعتقاد قديم متداول بين القرشيين ، ومحفوظ صداه في عدد من الاحاديث ، مفاده ان الكعبة يهدمها الاحباش[7] . وقد ظلّ هذا الاعتقاد راسخاً حتى في الاسلام ،

---

١) الاغاني ٨ : ١٩٠ ، ١١ : ٨٩ ، ٩٥ ؛ ١٢ : ٢٥

٢) كان الكثير من العبيد يلجأون الى الهرب ، « فيأبقون » تاركين لسادتهم خسرةً وعمًّا ؛ اسد الغابة ٥ : ٥٣٠

٣) وقد تحوّل « صحابيًا » فاستلته « السيرة » لتضخيم الحادثة

٤) النسائي : السنن ٢ : ١١٣

٥) ابن هشام : السيرة ٧٥٢ ؛ اسد الغابة ٣ : ٣٦٠ ، ٥ : ١٥٠ . وهناك ذكر لكثير من السودان والعبيد الأبّاقين الملاحقين بحسد في اسد الغابة ٤ : ٣٦

٦) الازرقي ١٩٣ ؛ *Chroniken, III, 81* ؛ ابو داود ٢ : ١٢٣ ؛ ابن الديبع : تيسير الوصول ٣ : ١٢٠ ابن الأثير : النهاية ٢ : ١٩٣ ، ٤ : ٢٦٤ ، ١٨٨

فحاول ابن الزُبير ، بعد الهجرة بسبعين سنة ، ان يستأصل هذا الوهم من عقول المكيين ، فلجأ الى خطة ساذجة مضحكة عندما اعاد بناء الكعبة[1] . اما ما يهمنا من الأمر فهو ما يدلّ عليه من صدى بليغ في اذهان العرب لانتصار الاحباش عليهم؛ ومن ذعر تلك في عقول المكيين لدى رؤية هؤلاء السودان بالسلاح الكامل . كانوا يحذرون ، في ما لو نزل رجال النجاشي على ساحل تهامة ، ان يلتحق بهم ابناء قومه من الاحابيش . وهو فرض لم يكن من الغرابة في شيء[2] .

أوَ لم يهجم ، بعد ذلك ، عدد من الاحباش على ساحل مكة في حياة النبي ؟[3]

أوَ لم تتعدّد هذه الغزوات بعد وفاة النبي، فيضطرّ عمر بن الخطاب الى ارسال حملة خاصّة على بلاد الحبش ، فتهلك كلّيا ؟[4]

أوَلم يقل النبي من حديث : « لا تبعثوا الرابضين الترك والحبشة . اي المقيمين الساكنين ، يريد : لا تهيّجوهم عليكم ما داموا لا يقصدونكم . »[5] ولا يخفى ما في ذكر الترك الى جنب الحبش ، من إشارة الى دور الاتراك المقبل في جيوش الخلافة العبّاسية ، وهو اشبه بدور « الاحابيش » في الجيش القرشي .

يظهر من كل ما تقدّم مركز مكة الحرج بالنظر الى اولئك العساكر المأجورين الذين كانت تتكل عليهم في الدفاع عنها ، وتحذر سيطرتهم عليها، اذا مكّنتهم الظروف . يظهر كذلك تجرّد المكيين عمّا يُنسب اليهم عادةً من صفات الشجاعة والرجولية . وهو ما يؤيّد حكم استرابون منذ العصور القديمة ،

---

١) السيرة الحلبية ١ : ١٨٣ ؛ *Chroniken*, III, 81

٢) راجع الازرقي ١٩٣–١٩٤

٣) ابن سعد : الطبقات ٢ : ١١٨

٤) اسد الغابة ٤ : ١٤

٥) ابن الأثير : النهاية ٢ : ٥٩ ؛ ابو داود ٢ : ١٣٣ ؛ ابن الديبع ٣ : ١١٠ ؛ قابل بما في السيوطي : الموضوعات ١ : ٢٢١–٢٢٢

وقد قال : « العرب تجّار وعساكر ، ولكنهم من اضعف الجنود . »[1] وقد كان لنا ان نشير الى هذه النتيجة في بحث سابق[2] ، وها اننا نساق اليها اليوم في درسنا النظام العسكري في مكة .

ويبدو لنا ان النبي ادرك هذا الأمر وقد وقف بنفسه على نظام الاحابيش الفاسد . ولم يرَ خيرًا في التهوّر بحروب عقيمة ، فنصح قومه بان لا يلجأوا الى السلاح الّا وهم على ثقة من احراز النصر ، وإلّا فعليهم بالسعي في الصلح . اما اذا كانوا على نصر فلا صلح ولا سلم . وهو معنى الآية : « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الأعلَون . »[3] وقد رأى النبي انه ادرك هذا التفوّق الحربي ، بعد معاهدة الحديبيّة ، وكان قد عمل على استمالة القبائل التي كانت قريش تتخذ منها ضبّاط الاحابيش[4] . فاستمال اولًا بني خزاعة ، « من عرفنا حقدَهم على قريش ، ثم بني غِفار[5] واقرباءهم من كنانة . وكان انه جرّب شجاعة هؤلاء ، في حصار خيبر ، غاضًّا النظر عن وجود النساء الغفاريّات بين العسكر بصفة بائعات ومرّضات[6] . حتى اذا استفاد من هذه التجربات ، وايقن ضعف المتسوّلين القرشيين ، ويأسهم من الحرب بعد ان تركوا وشجاعتهم الخاصة ، عزم على ان يضرب مسقط رأسه الضربة القاضية ، فينال « فتحًا مبينًا »[7] ، بل « فتح الفتوح » كما يقول الحديث .

---

١) جغرافية اسطرابون ١٦ : الفصل ٤ ، الرقم ٢٢

٢) *Berceau*, I.191 ، وقابل بها في ارميا ٣ : ٢

٣) القرآن ٤٧ : ٣٥ ؛ وقابل بها في ٣ : ١٣٩

٤) وقد احتلّ ابو رهم الغفاري منصب عامل المدينة على مرّتين (اسد الغابة ٥ : ١٦٧ ؛ ابن هشام ٨١٠ ، ٩٠٥)

٥) السهودي ١ : ٥٤٧ . وفيها ان النبي اعتاضهم ارضًا في المدينة . وهناك ذكر لمسجد وارض غفارية في المدينة (السهودي ٣ : ٥٤٧ – ٥٤٨) ومرافق غفارية في خيبر (اسد الغابة ٥ : ٥٧٦)

٦) ابن هشام ٧٦٧ – ٧٦٩ ؛ اسد الغابة ٥ : ٤٠٥ ، وهو الشرح الرسمي في الحديث الاسلامي . راجع كتابنا في ... *Bibles*, p. 123

٧) القرآن ٤٨ : ١

وكان من نتائج هذا الفتح انه جعل مكّة ولاية متعلّقة بحكومة المدينة، فاضمحلّ جيش الاحابيش[1] وما اليه من نظام عسكري قديم، بل اضمحلّ اسم «الاحابيش» بعدئذٍ في تاريخ المدينة القرشية.

---

١) ولكن لم تتلاشَ الكتائب السوداء من الجيوش الاسلامية. وهناك عدد كثير من السودان في بلاد العرب (جغرافية المقدسي، ٩٥) واكثر العبيد في الحجاز من الحبش (ابن الاثير: النهاية ١: ١٥٩)، وحرّاس مسجد المدينة من الاحابيش (السمهودي ١: ٤٦١) وفي بعض كتب الحديث مدح صارخ للحبش، كما في السيوطي: الموضوعات ١: ٣٣٠؛ وكتر العمّال ٦: ٦١٤ العدد ٢٧٣٨، وفيه: «قسم الشجاعة عشرة اجزاء فقسمة في السودان وجزء في سائر الناس . . .» (كذا) وظلّ الحجازيون يستخدمون العبيد في الحرس الرسمي حتى عصرنا هذا، فكان حرس الشريف الأكبر من السودان. قال عنهم ديديه: «وكان من الضروري ظهور وجوه الآبنوس هذه كي لا يظهر العرب سود الوجوه تمامًا» Didier, *Séjour chez le Grand Chérif*, p. 244